حكمة ابن حزم وفلسفته

حِكَمٌ قديمة ولكنها جديدة

كان الوزير الحافظ ابو محمد علي بن احمد بن سعيد (بن حزم) الاندلسي الظاهري اماماً من ائمة الاندلس الاعلام . وكان الفيلسوف الاكبر (ابن رشد) يردُّ عليه في بعض كتبه كلما عرض له رأي مخالف لرأيه . وحسبنا ذلك دلالة على منزلة (ابن حزم) من الحكمة والفلسفة . وقد ورد في كتابنا ابن رشد وفلسفته) عبارة ردَّ بها هذا الفيلسوف على زميله وان كان مشاركاً له في كثير من الآراء والاحوال اخصها الاضطهاد الذي اصاب ابن حزم من اجل مبادئه وتعاليمه(١) . واتفق اننا قبل السفر من مصر شرعنا في قراءة كتاب (ابن حزم) في (مداواة النفوس وتهذيب الاخلاق والزهد في الرذائل) فاعجبتنا فيها آيات باهرات في الحكمة والفلسفة . فلما شرعنا في إعداد مواد الجامعة هنا وكان الفكر لا يزال متبلبلاً . والعزم متقلقلاً . والعقل بين آثار نيويورك ومفاخرها متنقلاً . فقد رأينا من الفائدة لنا ولقرّائنا ان نملأ شيئاً من فراغ المجلة بحكمة هذا الجهبذ الحكيم

والمتأمل في الشذرات التالية المقتطفة بكل تروٍّ وامعان من جميع اجزاء الكتاب يعجبه منها امران ويدعوه امر ثالث الى التفكر والامعان . اما ما يعجبه فهو اولاً جمال لغة ابن حزم ولطف تعبيره ورقة اسلوبه . والامر الثاني ان كثيراً من حكمة ابن حزم ينطبق على لباب النواميس الطبيعية والشرائع العليا الادبية اتم انطباق(٢) وهذا ما يوجب الاهتمام بها اذ لولا ذلك لكانت كغيرها مما كتبه المتقدمون نسيج ترّهات وخليط خرافات . وهذا الامر هو الفارق الحقيقي بين التمدن الحقيقي والتمدن الباطل . والفلسفة الحقيقية والفلسفة الباطلة . نعني ان كل شريعة وكل فلسفة وكل مبدإٍ لا تبنى على (الناموس الطبيعي والشريعة الادبية العليا) فانما هي عبارة عن بيت من الرمال ينهدم عند هبوب اخف ريح من الجنوب

---

(١) قال الفيلسوف ابن رشد في كتابه (تهافت التهافت) في رده على الامام الغزالي بمسألة تلازم الاسباب والمسببات (لذلك العقل ليس بجائز فيمكن ان يخلق على صفات مختلفة كما توهم ذلك ابن حزم) (ابن رشد الصفحة ١٠٧)

(٢) وهذا لا يمنع ان يكون فيها كثير من الاوهام والآراء الضعيفة المرجوحة

او من الشمال . ألا ترى ان مؤلفي القدماء عند العرب يعدّون بالالوف ولا يُعتدّ الاّ ببضع عشرات منهم . فالفارق بينهم انما هو نخلهم بمنخل النواميس الطبيعية والشرائع الادبية الحقيقية . وهذا سبب ارتفاع (ابن رشد) في اوروبا وسائر العالم المتمدن على جميع علماء العرب حتى الفيلسوف ابن سيناء نفسه للذي كان مشهورًا بين ابناء المشرق اوسع شهرة حالة كون علماء الافرنج لا يكرمونه اليوم نصف اكرامهم لابي الوليد

واما الامر الذي يدعو الى التفكر والامعان فهو ما يستشفه القارئ من خلال كلام ابن حزم من خصومات كان حساده يطاردونه بها وعداوات مهما فعل لم يكن يستطيع ازالتها . وهذه على ما يظهر من (لزوم ما لا يلزم) عند حكماء الزمان في كل آن . وما برحت الجهالة والشناعة عدوة للحكمة والجمال . — والآن ننقل شيئًا من حكمة ابن حزم على ان نعود الى ترجمته وفلسفته في جزءٍ آخر

١ سوء الظن يعدّه قوم عيبًا على الاطلاق وليس كذلك الا اذا ادى صاحبه الى ما لا يحلّ في الديانة او الى ما يقبح في المعاملة والا فهو حزم والحزم فضيلة

٢ حدّ العدل (اي تعريفه) ان تعطي من نفسك الواجب وتأخذه . وحدّ الجور ان تأخذه ولا تعطيه

٣ اول من يزهد في الغادر من غدر له الغادر . واول من يمقت شاهد الزور من شهد له به

٤ لكل شيءٍ فائدة ولقد انتفعت بمحكّ اهل الجهل منفعة عظيمة وهي انه توقّد طبعي واحتدم خاطري وحمي فكري وتهيج نشاطي فكان ذلك سببًا الى تآليف عظيمة النفع . ولولا استثارتهم ساكني واقتداحهم كامني ما انبعثت لتلك التآليف

٥ لا تصاهر الى صديق ولا تبايعه فما رأينا هذين العملين الا سببًا للقطيعة . وان ظن اهل الجهل ان فيهما تأكيدًا للصلة فليس كذلك . لان هذين العقدين داعيان كل واحد الى طلب حظ نفسه . والمؤثرون على انفسهم قليلٌ جدًّا

٦ صدق من قال ان العاقل في الدنيا متعوب . وصدق من قال انه فيها مستريح . فاما تعبه فيما يرى من انتشار الباطل وغلبته دولته . وبما يحال بينه من اظهار الحق . واما راحته فمن كل ما يهتم به سائر الناس من فضول الدنيا (١)

---

(١) هذا من قبيل التزهيد في الدنيا وهو امر فات وقته

٧ ان لم يكن لك عدو فلا خير فيك ولا منزلة اسقط من منزلة من لا عدوّ له (١)

٨ لقد سألتُ بعضهم في رفق ولين عن سبب علو نفسه واحتقاره الناس فما وجدتُ عنده مزيداً على ان قال لي (انا حرّ لستُ عبد احد) فقلت له : اكثر من تراه يشاركك في هذه الفضيلة فهم احرار مثلك الاّ قوماً من العبيد هم اطول منك يداً وامرهم نافذ عليك وعلى كثير من الاحرار (٢) فلم اجد عنده زيادة فرجعت الى تفتيش احوالهم ومراعاتها فافكرتُ في ذلك سنين لاعلم السبب الباعث لهم على هذا العجب الذي لا سبب له . فلم ازل اختبر ما تنطوي عليه نفوسهم بما يبدو من احوالهم ومن مرامهم في كلامهم فاستقرّ امرهم على انهم يقدرون ان عندهم فضل عقل وتميز راي اصيل لو امكنتهم الايام من تصريفه لوجدوا فيه متسعاً ولأدّاروا الممالك الرفيعة ولبان فضلهم على سائر الناس : — كما نقص العقل توهم صاحبه انه اوفر الناس عقلاً (٣)

٩ ليس من الحلم تقريب الاعداء ولكنه مسالمتهم مع التحفظ منهم

١ نجد فرط المودّة يلتقي مع فرط البغضة في تتبع العثرات

١١ الخطاء في الحزم خير من الخطاء في التضييع

١٢ من اراد الانصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه فانه يلوح له وجه تعسفه

١٣ ثق بالمتدين ولو كان على غير دينك ولا تثق بالمستخف وان اظهر انه على دينك (٤)

١٤ حدّ العفة ان تغض بصرك وجميع جوارحك عن الاجسام التي لا تحل لك فما

---

(١) قد يكون هذا القول صحيحاً وقد يكون باطلاً

(٢) هنا غمزة هائلة لا يُعرف مراده بها (٣) كل من يقرأ هذه الشذرة الجميلة يظن انه يقرأ شيئاً من حكمة حكيم الفرنسويين المشهور « لابرويير » صاحب كتاب « الاخلاق » الذي قال فيه العلماء المتاخرون « انه احد كتب قليلة تشرّف العقل الفرنسوي خارج فرنسا خصوصاً عند الامم الجدية كالانكليز والاميركان » وذلك لان الفرنسويين مشهورون بالخفة كما يقولون . وتشبيعنا حكمة ابن حزم بحكمة لابرويير اعظم ثناءٍ على ابن حزم (٤) كان الاسبانيون واليهود في الاندلس مختلطين بالعرب اشد اختلاط وقد كان زمن عاش فيه الثلاثة « المسيحيون والمسلمون واليهود » في الاندلس بائتلاف تام وذلك في عهد الحكم كما فصلناه في كتاب « ابن رشد وفلسفته » فقد يكون في هذه الشذرة اشارة الى ذلك الائتلاف

عدا هذا فهو عهر

١٥ استبقاك من عاتبك وزهد فيك من استهان بشانك : — العتاب للصديق كالسبك للسبيكة فاما تصفو واما تطير

١٦ لا تكلف صديقك الاَّ مثل ما تبذله من نفسك فان طلبت اكثر فانت ظالم

١٧ اذا ارتفعت الغيرة (يريد بين المحبين) فايقن بارتفاع المحبة

١٨ اخبرني بعض من صحبناه في الدهر عن نفسه انه ما عرف الغيرة حتى ابتلي بالمحبة (١) وكان هذا المخبر فاسد الطبع خبيث التركيب الا انه من اهل الفهم والجود

١٩ « الحلاوة » دقة المحاسن ولطف الحركات وخفة الاشارات . ورب جميل الصفات « يعني جميل المنظر » على انفراد كل صفة منها بارد الطلعة غير مليح ولا حسن ولا رائع . وهي ايضاً « الفراهة » — « الحسن » هو شيء ليس له في اللغة اسم يعبر به عنه ولكنه محسوس في النفوس باتفاق كل من رآه . وهو برد مكسو على الوجه واشراق يستميل القلوب نحوه فتجتمع الآراء على استحسانه . وان لم تكن هناك صفات جميلة « اي اعضاء واجزاء جميلة » فكل من رآه راقه واستحسنه وقبله حتى اذا تأملت الصفات افراداً لم ترَ طائلاً . وكانه شيء في نفس المرئي يجده نفسه الرائي (٢)

٢٠ درج المحبة خمسة . اولها « الاستحسان » وهو ان يتمثل الناظر صورة المنظور اليه حسنه او يستحسن اخلاقه وهذا يدخل في باب التصادق (٣) ثم « الاعجاب » وهو رغبة

---

(١) ليس في هذا القول غرابة لانه امر طبيعي . وانما الغرابة والملاحة في ان يقول مثلاً « ما عرف المحبة حتى غار » لان الغيرة اقوى مذكيات نار المحبة

(٢) هذا ما يسميه الباريزيون (chic parisien) ومن امثالهم في وصف امرأة لا يدرك معنى جمالها ادراكاً تاماً اذا نظر الى اجزاء وجهها افراداً وهي مع ذلك اجمل من الجميلات

elle a (je ne sais quoi) de sublime et de beau

(٣) من الغرابة ان نجد هذا الراي في التمدن الاندلسي لان الشريعة الاسلامية تمنع « الصداقة » بين الرجل وامراة من غير زوجه واهله . اما الافرنج اليوم فهذه المسألة عندهم من المسائل العائلية المهمة وهي « هل يمكن ان تتخذ المراة في العائلة صديقاً لها يعاملها وتعامله معاملة الصديق لصديقه دون ان يخشى من خطر وقوع الحب بينهما »

الناظر في المنظور اليه في قربه . ثم « الالفة » وهي الوحشة اليه اذا غاب . ثم « الكلف » وهو غلبة شغل البال به وهذا النوع يسمى في الغزل العشق . ثم « الشغف » وهو امتناع النوم والاكل والشرب الاّ اليسير من ذلك . وربما ادى ذلك الى المرض او الى التوسوس او الى الموت

٢١ لقد طال همٌّ من غاظه الحق

٢٢ رأيت الناس في كلامهم الذي هو فصل بينهم وبين الحمير والكلاب والحشرات ينقسمون اقساماً ثلاثة « احدها » من لا يبالي فيما انفق كلامه فيتكلم بكل ما سبق الى لسانه غير محقق نصر حق ولا انكار باطل وهذا هو الاغلب في الناس « والثاني » ان يتكلم ناصرًا لما وقع في نفسه انه حق ودافعاً لما توهم انه باطل . غير محقق لطلب الحقيقة لكن لجاجاً فيما التزم وهذا كثير . وهو دون الاول « والثالث » واضع الكلام موضعه وهذا اعزّ من الكبريت الاحمر

٢٣ مما ينجع في الوعظ الثناء بحضرة المسيء على من فعل خلاف فعله . فهذا داعية الى عمل الخير وما اعلم لحب المدح فضلاً الاّ هذا وحده

٢٤ من وعظ ببشر وتبسم ولين كانه مشير برأي ومخبر عن غير الموعوظ بما يستقبح من الموعوظ فذلك ابلغ وانجع في الموعظة . وكان صلى الله عليه وسلم « يعني الرسول » لا يواجه بالموعظة لكن يقول « ما بال اقوام يفعلون كذا »

٢٥ تأملت كل ما دون السماء وطالت فكرتي فوجدتُ كل شيءٍ فيه من حي وغير حي طبعه ان قوسيء ان يقلع عن غيره من الانواع كيفياته ويلبسه صفاته . فترى الفاضل يودّ لو كان الناس فضلاء . وكل ذي مذهب يودّ لو كان الناس موافقين له . وترى ذلك في الغياض اذا احال بعضها على بعض احاله الى نوعيته وترى ذلك في تركيب الشجر وفي تغذي النبات والشجر والماء ورطوبة الارض واحالتها ذلك الى نوعيتها (١) فسبحان مخترع ذلك ومدبره — ثم لا ترى احداً يشبه آخر شبهاً لا يكون بينهما فيه فرق . وقد سألت من طال عمره وبلغ الثمانين عاماً هل رأى الصور (٢) في ما خلا مشبهة لهذه شبهاً واحداً . فقال لا . بل لكل صورة فرقها . وهكذا كل ما في العالم يعرف ذلك . لكن من تدبر

---

(١) ادهشنا هذا القول من ابن حزم لانه تقدّم به « درون » العالم المشهور بعدة قرون . ولكن لا غرابة في ذلك فان في كثير من مبادىء المتقدمين بزور مبادىء المتاخرين (٢) يعني صور الموجودات اي اشكالها التي تتشكل بها

الآلات وجميع الاجسام المركبات وطال تكرّر بصره عليها فانه حينئذٍ يميز بينها ويعرف بعضها من بعض بفروق (١)

٢٦ محن الانسان في دهره كثيرة واعظمها محنته باهل نوعه من الانس : داء الانسان بالناس اعظم من دائه بالسباع الكلبة والافاعي الضارية لان التحفظ من كل ما ذكرنا ممكن ولا يمكن التحفظ من الانس اصلاً

٢٧ ما رأيت العجب في طائفة اقلّ منه في اهل الشجاعة واستدللت بذلك على نزاهة انفسهم ورفعتها وعلوها

٢٨ لعل علمك الذي تعجب بنفاذك فيه من العلوم المتأخرة التي لا كبير خصلة فيها كالشعر وما جرى مجراه (٢)

٢٩ لا شيء اضرّ على السلطان من كثرة المتفرّغين حواليه « يعني الذين لا شغل لهم » فالحازم يشغلهم بما لا يظلمهم فيه فان لم يفعل شغلوه بما يظلمونه فيه (٣)

٣٠ العلوم الغامضة كالدواء القوي يصلح الاجساد القوية ويهلك الاجساد الضعيفة

٣١ من سرّ بشجاعته فليعلم ان النمر اجرأ منه . وان الاسد والذئب والفيل اشجع منه . ومن سرّ بقوة جسمه فليعلم ان البغل والثور والفيل اقوى منه جسماً . ومن سرّ بحمله الاثقال فليعلم ان الحمار احمل منه . ومن سرّ بسرعة عدوه فليعلم ان الكلب والارنب اسرع عدواً منه . ومن سرّ بحسن صوته فليعلم ان كثيراً من الطير احسن صوتاً منه . فاي فخر واي سرور في ما تكون فيه هذه البهائم متقدمة عليه . لكن من قويت تمييزه واتسع علمه وحسن عمله فليغتبط بذلك

---

(١) هذا القول من المدهشات ايضاً وتفسيره باللغة الفلسفية الحديثة ان المادة في جميع الموجودات واحدة في الارض كما اثبت ذلك العلاّمة برتلو الكيماوي الفرنسوي المشهور وانما تتخذ اشكالاً « صوراً » مختلفة . وهو ما يسمونه

La diversité dans l'unité

٢ نظن ان شعراءنا الافاضل يتعزون بعض الشيء بهذا الكلام من ابن حزم عن شعراء الاندلس في عصره . وبه يستدل على مقام الشعر يومئذٍ

٣ هذا الكلام البديع لا يحتاج الى حاشية لانه مفهوم بنفسه